العرب
الإثنين 2021/05/17
السنة 43 العدد 12061

فيلم خيال علمي يشرّح ثنائية الوعي واللاوعي

«صار حقيقة».. تجارب عن مراحل النوم تنتهي بالعثور على حياة أخرى

الخيال المديد في فيلم "صار حقيقة" يذهب بالمُشاهد بعيدا في قراءة تتغلغل حتى منطقة اللاوعي والأحلام وما يحيط بالشخصيات من مشاعر وأفكار، وهو ما يكشف الكثير من الحاجات والدوافع الإنسانية غير المعلنة. لكنّ السؤال الذي يُطرح هو: كيف يمكن تجسيد كل تلك المشاعر الباطنية والغوص في عالم اللاوعي والأحلام؟

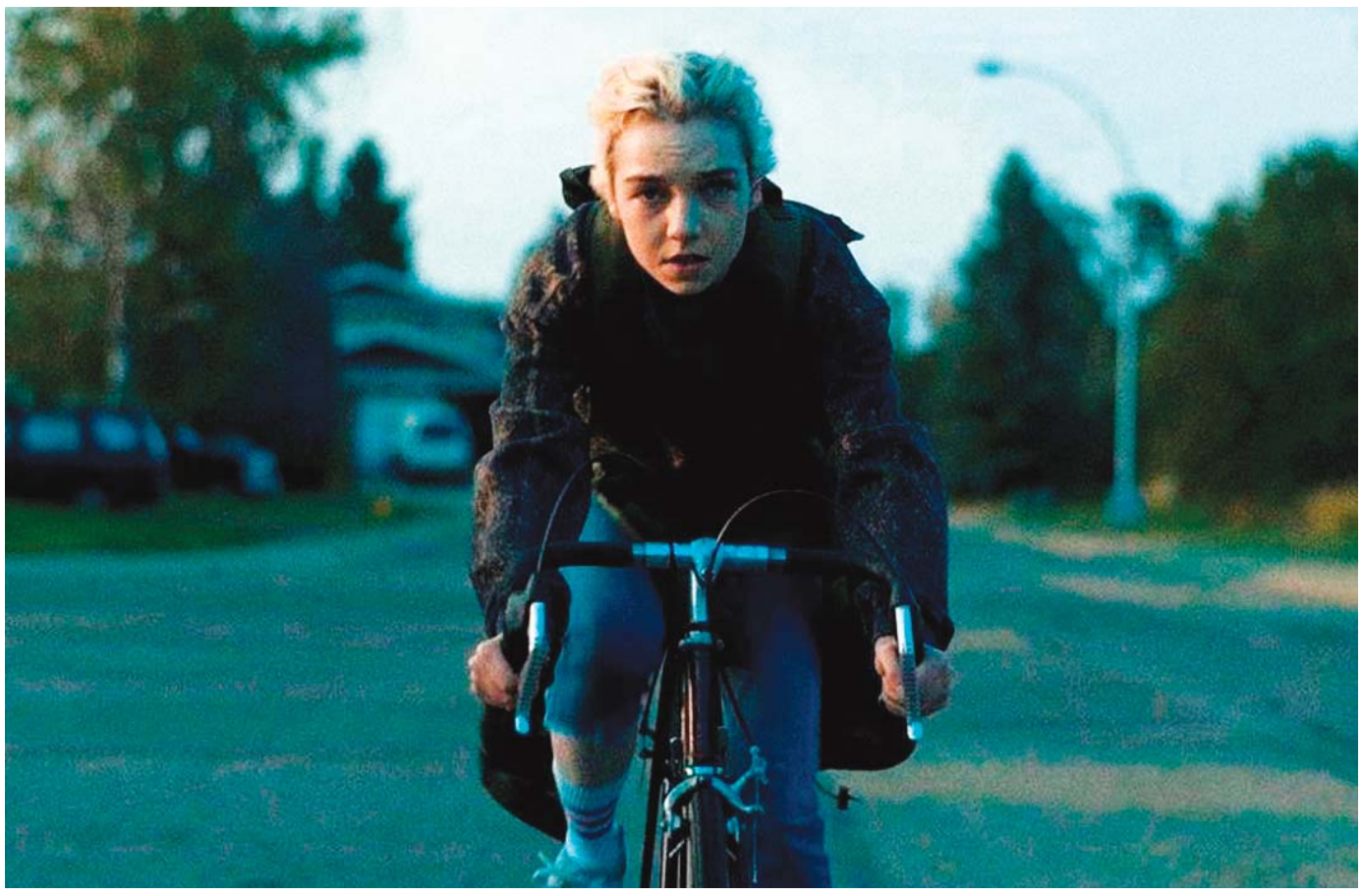

خلط مُربك بين الأحلام والكوابيس

طاهر علوان
كاتب عراقي

يخوض المخرج أنتوني بيرنز في فيلمه الجديد "صار حقيقة" في عالم اللاوعي والأحلام من خلال اختياره شخصية يغوص بواسطتها في ذلك العالم الفسيح والمجهول. والشخصية التي يتم التمهيد لها بما فيه الكفاية هنا، هي الفتاة سارة (الممثلة جوليا ستون) الشابة الصغيرة التي تعيش منعزلة عن كل ما حولها.

تلك العزلة الكاملة سوف ترافقها تداعيات وأحلام هي أقرب إلى الكوابيس، لاسيما وأنها تمضي ليلها مشرّدة عن المنزل الذي تعيش فيه، ومع ذلك فإن الفيلم لن يقدّم لنا أية تفاصيل تتعلق بحياتها العائلية، ولماذا هي تنام في الخلاء وحدَها؟ ولماذا تواجه صعوبة في التركيز في دراستها؟

> الفيلم يغوص في اللاوعي الإنساني عبر تجربة تتنقل بين مراحل ما قبل النوم إلى بداياته إلى السبات العميق فالأحلام والكوابيس

من هنا سوف ننتقل من خلال حبكة ثانوية إلى منطقة أخرى من عالم سارة الشخصي، فهي تجد بالصدفة إعلانا عن تجارب تجريها الجامعة على عمليات النوم والمصاعب التي تواجه بعض الأشخاص في النوم وما إلى ذلك، فتجدها فرصة لكي تنام على سرير دافئ ظلت تفتقده مع أنها وهي تنام في منزل صديقتها تراودها أحلام تتكرّر عن كائن ملتحف بالسواد يشبه الأشباح.

تلتحم من خلال شخصية سارة حالتها النفسية ووضعها الاجتماعي وكونها قد تجاوزت سن الثامنة عشرة، فهي في طور تشكّل المدركات، ولهذا يتركها المخرج تمارس يومياتها الطبيعية بعفوية كاملة، بما في ذلك طبيعتها المتمرّدة وهي في حال اليقظة في مقابل هشاشتها وضعفها وهي تعيش كوابيسها المتكرّرة.

تجتاز سارة الاختبارات الضرورية للدخول في تجربة النوم، وقد ارتدت قبّعة موصولة بأسلاك تراقب أداء الدماغ والذبذبات الصادرة عنه، فيما هي تتنقّل بين مراحل ما قبل النوم إلى بداياته إلى النوم العميق وعالم الأحلام والكوابيس وانتهاء باليقظة، بينما هناك كاميرات تراقب النائم طيلة الليل وباحثون يسجّلون كلّ شيء.

على هذه الأرضية سوف ندخل عالم سارة، الشخصية المثقلة بصعوبة ربط عالم الأحلام والكوابيس بالحياة اليومية، وإذ تمضي الليلة الأولى من التجربة بنجاح إلاّ أن ما يلي من ليالٍ سوف تكون هي الكابوس الحقيقي بالنسبة إليها.

ربما يكون وجود شخص ما سوف تسعى سارة لمقاربته مع أحلامها، ذلك هو التحوّل في الوعي والدوافع النفسية وهو ما يبرع فيه المخرج في وسط تلك القتامة اليومية والمشاهد الليلية التي تثقل على سارة، وهي تكتشف أن من يراقبها عبر الكاميرات كانت قد التقته في سهرة ليلية، وأنّه كان يتقرّب إليها، وأنّه هو الآخر كان يراها في حلمه في شكل شبح بالكاد تتّضح ملامحه.

هذه الشخصية الموازية سوف تحيلنا إلى إشكالية تلك العلاقة المرتبكة والغريبة ما بين جيرمي (الممثل لاندون ليبريون)، وكيفية تكوّن تلك العلاقة وسط كل تلك التقاطعات النفسية إلى درجة أن الفريق الذي يجري الأبحاث على ذلك العدد من النائمين يتّهمونه بتخريب البحث برمّته بسبب علاقته مع حالة سارة.

وخلال ذلك يبدو الإيقاع في هذا الفيلم عنصرا مهما وبدا للوهلة الأولى أن هبوطا في الأحداث ومسار السرد الفيلمي مع مرور الوقت سوف يقع، لكن ذلك لم يجد له مكانا في وسط أحداث الفيلم، إذ نجح المخرج في المضيّ في هذه الدراما إلى نهاياتها، بل إنه سوف يقرّب شخصياته حتى وهي تعيش خارج الواقع إلى شرطها الحياتي والواقعي.

وفي عدد من المشاهد المصنوعة بعناية سوف يغوص المخرج في وعي ولاوعي سارة بل إنه ساعة ملامسة تلك المناطق المعتّمة من شخصيتها ستنتابها حالة ممّا يشبه الصرع الذي لم تمر به أية شخصية في تجارب النوم السابقة، وهو ما يوقع القائمين على برنامج الأبحاث في حيرة من أمرهم بل إن البروفيسور المشرف على هذه التجارب سيترك للشخصيات حرية التخلّص ممّا في داخلها من خيالات وأحلام مطمورة في عمق اللاوعي.

يقع التحوّل في قراءة سارة لما يحيط بها بعد أن ترتبط بعلاقة مع جيرمي، والتي ستتطوّر لاحقا إلى نوع من الامتداد الشعوري عندما يصبح وجود جيرمي في الظلمة شبيها بذلك الشبح الذي يراودها في نومها بل إنها تشاهده في تجربة النوم وقد ظهرا معا، وساعتها تتأكّد من صدقية أحلامها وكوابيسها بأن ما كانت تشاهده من خلال ذاتها غير الواعية هو جيرمي نفسه، ولهذا تجد نفسها في حل من ذلك البرنامج البحثي عن حقائق النوم.

وبعد هذا فإن المخرج يمضي بنا إلى تطوّر آخر يرتبط بالشخصية والمتمثل في السير أثناء النوم، وهو ما سوف تعيشه سارة وهي تسير في الليل ليلاحقها جيرمي ويناشد زميلته أنيتا (الممثلة كارلي ريسكي) أن تجلب المعدات لمراقبة التحوّلات الأخيرة لسارة، وفيما هما وسط عتمة الطريق تتكامل حيرته بصددها ويتبيّن له أنها كائن لا يستطيع أن يعيش إلاّ وسط اليقظة والأحلام.

إرنست ينقل الفن المديني من الشارع إلى أروقة الفنون

«أوراق جدران» عنوان لمعرض يقام في غاليري غرونيار بضاحية رويل ماليزون الباريسية لرائد فن الشارع الفرنسي إرنست بينيون إرنست، الذي حاز شهرة عالمية بفضل أعمال ملتزمة تلتحم بالمكان الذي توضع فيه.

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

ولد إرنست بينيون إرنست عام 1942 بمدينة نيس (جنوب فرنسا)، لأسرة متواضعة، واكتشف شظف العيش من صغره، حين أرغم والداه على مغادرة البيت. وبعد أن قام بإنجاز رسوم في الهندسة المعمارية استقر بمحافظة فوكلوز قرب مدينة أفينيون.

ولما كان من عشاق بيكاسو ولوغريكو وبيكون أحسّ ما في الرسم الفني من إمكانيات تعبير، ولكنه اختار أسلوبا خاصا، توسّل به في الدفاع عن الضعفاء والمظلومين، قبل أن يعتنق قضايا إنسانية كبرى أولاها إدانته للسلاح النووي، عندما لاحظ تنصيب ترسانة نووية في محافظة الفوكلوز جنوب فرنسا، في أواسط الستينات، حيث رسم صورة ضخمة لرجل أحرقته صاعقة نووية في هيروشيما، ومضى يلصق نسخا منها على جدران البيوت.

إرنست يوظف فن الشارع للدفاع عن الضعفاء والمظلومين

وبذلك أعلن عن التزامه سياسيا واجتماعيا وتوخّى فنا غايته زعزعة القناعات وفتح البصائر على ما يجري في العالم. ومنذ السبعينات أعلن عبر رسومه عن إدانة حرب الجزائر وسياسة الأبارتايد في جنوب أفريقيا ووضع المهاجرين في أوروبا والجدار العازل في فلسطين، ليسلط الضوء على ضحايا تلك الأحداث، وإخراجها من دائرة الصمت المفروض عليها.

من ذلك مثلا أنه ناهض قرارا اتخذه المجلس البلدي لمدينته نيس بتوأمتها مع مدينة كيب تاون، وكانت حينها عاصمة للميز العنصري الرسمي في جنوب أفريقيا، فأنجز لوحة تصوّر أسرة سوداء معزولة خلف الأسلاك الشائكة، ثم قام بتلصيق مئات منها في شوارع مدينة نيس.

لم يكن تلصيق الرسوم مسموحا به في ذلك الوقت، بل إن مواقع كثيرة من المدن الفرنسية يتصدّرها تحذير بلدي "التلصيق ممنوع"، ولذلك عُدّ عمل إرنست بينيون خرقا للقانون، يعاقب عليه. ومن الطرائف التي يذكرها في بداياته أن أعوانا من الشرطة قبضوا عليه حين كان يعلّق في أحد شوارع باريس رسما للشاعر رامبو، وحشروه في سيارتهم لنقله إلى المخفر بتهمة تشويه المدينة، ثمّ حصل ما لم يكن يتوقعه، إذ وقع على شرطي يعشق رامبو، ويحفظ بعضا من أشعاره، فلما عرف مسعى الفنان أطلق سراحه.

قبل جي أر، وبانكسي، وسي 215، ابتكر إرنست فنا جديدا هو فن الشارع، أو الستريت آرت، ومؤرخو الفن يعتبرونه رائد هذا الجنس، ولكنه يرفض أن ينظر إلى أعماله كذلك، ويفضل أن يطلق على فنه "الفن المديني" أو "الفن الحضري"، لأن أعماله ليست مجرد غرافيتي يرسم على جدار مبنى أو مستودع مهمل أو نفق مترو، بل هي جزء من المكان الذي توضع فيه، لا تنفصل عنه.

وفي رأيه أن ثمة فرقا بينه وبين فناني الستريت آرت، فهو يستعمل الزمن والفضاء والذاكرة، ويحاول أن يجعل من الشارع عملا فنيا، بينما هم، في معظمهم، يجعلون من الشارع غاليري، مكان عرض.

وإرنست لا يتوخى الطريقة التي يستعملها فنانو الغرافيتي، إذ يرسم لوحاته بقلم الفحم والحجارة السوداء والممحاة المثلومة في مرسمه بضاحية إيفري سور سين، ثم يقوم بتلصيق نسخ منها في المكان الذي يكون قد اختاره مسبقا حسب مقاربة مخصوصة، فالمعروف عنه أنه يقوم باستكشاف المكان أولا، ودراسة تاريخه، ومعرفة خصائصه، قبل أن ينجز العمل الذي سيودِعه فيه.

من ذلك مثلا أنه اطلع على نحو مئة كتاب قبل إنجاز سلسلته في مدينة نابولي الإيطالية ما بين عامي 1988 و1995. وكان قد انجذب إلى تمثلات الموت في تلك المدينة، بأساطيرها وطقوس جنائزها وأصول أهلها، فقضى أعواما في جمع وثائق عن اتصالها بالأساطير الميثولوجية اليونانية والرومانية والمسيحية، وفق منطق يُخضعه للتاريخ والذاكرة، للإمساك بواقع الأمكنة المعقد، وكان يقضّي الساعات الطوال في تأمل لون جدار وضوئه وفروقه ورمزيته.

> الرسم في تصوّر إرنست كشف عن واقع المكان، فبفعل آثار واقع الرسم فقط ينتج التفاعل بين المكان وما يريد التعبير عنه

وهو يقول في هذا الشأن "عندما أهم بالعمل في مكان ما ألاحظ أوّلا كيف يمكن لي أن أقاربه، وأطلع على طبيعة الجدار ولونه وخصائص موقعه، لأن عملي يهدف، حتى وإن تناول ثيمات معاصرة، إلى خلق أصداء مع التاريخ والأساطير الكبرى التي تؤسّسنا".

ذلك أن الرسم في تصوّره هو نوع من الكشف عن واقع المكان، فبفعل آثار واقع الرسم فقط ينتج التفاعل بين المكان وما يريد التعبير عنه. إنه ثمرة تأمل يأخذ في الحسبان كل ما لا يُرى لأول وهلة، ولكنه حاضر، أي الفضاء والضوء وطبيعة الجدار. وهو في الوقت نفسه كل ما ينتمي إلى التاريخ والذاكرة وما يخلّفه الوجود البشري. وتلك طريقته في استنطاق الجدران، لكي يحيي تاريخ أحداث معيشة قبل أن يطمرها النسيان.

يقول إرنست "عندما أتدخل في مكان ما أدرج فيه علامة بشرية. أنا لا أعرض رسوما في الشارع، بل أثير شيئا ما في الشارع. فما أقترحه ليس مجرد صورة شخص، كبيرة كانت أم صغيرة، بل المكان نفسه وذاكرته".

وبما أن أعماله منذورة للتلف والزوال فقد دأب على الاحتفاظ بأصولها، أو نسخ منها أو صور فوتوغرافية عنها، وهي التي يشارك بها في المعارض الفرنسية والعالمية.

في مدن الغرباء

فاروق يوسف
كاتب عراقي

أعرف ما الذي يعنيه أن يكون المرء مهاجرا، بل مهاجرا "مطرودا من وطنه" إلى الأبد. تلك تجربة يمكن أن تكون عميقة وأيضا يمكنها أن تمرّ مثل هواء على سطح أملس. الصفير لا يترك أثرا.

في النصف الأول من القرن العشرين، يوم كانت الحداثة الفنية تبلور مفاهيمها غصّت باريس بالفنانين المهاجرين. صنع أولئك المهاجرون باريس الفنية التي نعرفها.

مدينة النور استقبلت المتمردين من كل جهات الأرض ليسقوا وردتها برؤاهم النضرة. صنعت باريس مجد بيكاسو الذي كان إسبانيا وإلى جانبه كان هناك موديلياني الذي كان إيطاليا، أما السويسري جياكوميتي فقد كان يذرع أزقة سانت جيرمان جيئة وذهابا، وكان هناك التشيلي ماتا.

كان الروائيون الأميركان قد أوحوا لوودي ألن وقائع فيلمه "منتصف الليل في باريس"، وهو خلاصة خيال الغرباء الذين عبروا ليل المدينة التي لا تزال فرنسية وستظل كذلك، بالرغم من أن الغزو الذي بدأ منذ برانكوزي الروماني لا يزال مستمرا حتى اليوم. مدن العالم تغصّ بالغرباء. بل إن مدينة من غير غرباء لا تكاد تعثر على مكان لها على خارطة العالم المعاصر.

حين أجلس على مقعد في مترو لندن أستمع إلى كل اللغات ما عدا الإنجليزية. نادرا ما أُنصت إلى حوار يدور بين إثنين بلغة أهل البلاد. كلنا غرباء. ذلك ما ينبغي أن ينعكس على ما نقوم به من نشاطات تعلو على ما يجري في الحياة المباشرة.

الرسم وهو نشاط مرئي يقدّم المخيلة باعتبارها مشروعا بصريا كان دائما سيد الجبهات التي تعلي من شأن حقيقة الاختلاف في التعامل مع المرئيات. ولأني أعرف رساميْن عربا قد هاجروا إلى الغرب منذ أكثر من أربعين سنة، فقد كنت أتوقّع أن أرى رسوما مطحونة بعذاب الغربة والنفي والهجرة والفقدان والوحدة والعزلة لا رسوما هي عبارة عن تتمة لما رأيناه من قبل. لم يكن ما تمنيته إلاّ وهما.

لذلك لا تلفت لندن وسواها من مدن المهاجرين الكبرى إلى الرساميْن العرب الذي يقيمون فيها. فهم ليسوا أوفياء لتجربتهم الإنسانية في الغربة؛ يعيشون غربتهم كما لو أنها حدث مؤقت سينتهي يوما ما ويرسمون كما لو أنهم لم يُقتلعوا من أرضهم وثقافتهم.

الرسم يعلي من قيمة الاختلاف (لوحة للفنان أميديو موديلياني)